الثورة ALTHAWRAH
Tuesday : 7 Rmdan 1434 > 16 July > Issue No. 17771

مشقر الوطن الذي حلق فوق حياة سوداء

زخات استقرائية من كفاح سيرة وتجربة الفتيح الإبداعية

3-1

منصور السروري

استهلال لابد منه

اسقني قطرات معدودة في حياتي ، ولا تفض مياه النهر العذب كلها علي بعد مماتي .
إن يكتب سطراً واحداً عني في حياتي أقرؤه فأرى نفسي في عيونكم أفضل عند من ألف كتاب سيُكتب عني في مماتي .
بما في هذه العبارات من معاني حادثني الشاعر سليمان المليكي ذكرني بما كان الفتيح قد قاله لي ذات مساء من نوفمبر 2009م أمضيته حتى وقت متأخر من الليل عنده وكان قصده كتاب ونقاد كبار أهداهم ديوانه " مشقر بالسحابة " فلم ير منهم أي كتابة عن شعره سلباً أو إيجاباً لأنه يريد أن يرى نفسه في حروفهم بأي صورة تكون .
انتابني هذا الإحساس على إثر نبأ رحيل الفتيح .
ما أسوأ أن يشعر المرء قبل رحيله : أنه لن يصله شئ من الاطراء الذي سيلحقه بعد انطفاءة عينيه .
اليس صحيحاً أن فائدة الكتابة عن مبدع بعد وفاته اشبه بفائدة نزول القطر بعد وفاة الضمآن ؟
يخالجني شعور ربما يكون صحيحاً : أن من جملة اسباب تقهقرنا الحضاري اننا لا نعرف قيمة العظماء بيننا .. ولا نذكر قيمتهم إلا على إثر غيابهم الأخير .. وهو طبع سائد فينا ولا يكاد يتزحزح بعد رحيل كل مبدع كأن نقول باقي مبدع هناك مازال حياً يجب رد اعتباره وتكريمه قبل رحيله هو الأخر وهو حزين على حالات التجاهل ، و اللاتقدير لعطاءاته وابدعاته .
كالفتيح .. نعم كأبو مطر الذي عاش كثيراً على هذا الوطن الذي بادل عشق وإخلاص الفتيح بالقسوة ، المعاناة .. تارة يفرض عليه الحرمان ، وأخرى الظلم ، وتارة يبخل عليه بأقل ما يستحقه من شروط الحياة المستقرة الهانئة اللائقة وحجم مكانته النضالية وإمكانياته العلمية ، المهنية المتعددة ، وعطاءاته الابداعية .. يا له من وطن قاس .. يمنحه الفتيح وأمثاله كل حياتهم فيبخل عليهم بكل شئ ، وليت الأمر يقف عند مستوى البخل بل أنه يمنحهم كل القساوات والأوجاع .

ومع ذلك سأكتب عن الفتيح لا لتسجيل حضور كبعض من كتبوا لهذا الهدف ليس أكثر ، وإنما لأنني أولاً : سبق أن كتبت عنه قبل سنوات لأكثر من مرة ، وثانياً : قدمت عنه قراءة بحضوره في منتدى بتعز بمقر الحزب الاشتراكي (نسيت أسمه) وأخذ الدراسة ــ مطهر الشرجبي ــ لطباعتها ، وهو أدبي ملزم بنشرها بأقرب وقت ، وثالثاً : ثمة أمانة وعدته بها أنني لن أكتب استقراء لسيرته إلا بعد وفاته حتى لا يعتبر ما سيرد فيها لكأنه بإيعاز منه ، ورابعاً لتصحيح كثير أخطاء وردت في مواقع وصحف ، ووقع فيها كثير من الكتاب الصحفيين بشان سيرته غلبت عليها لغة الانشاء التعبيري على الاستقراء الحقيقي الذي يفضي إلى مقاربة حقيقية تجربته الشعرية بعمقيتها الفلسفية على نحو انساني خلاق .
وقبل أن اكتب شيئاً أجدني ملزماً كل الإلزام بتوضيح في غاية الأهمية .. يبين من ناحية مبررات الانقطاع عن الفتيح في العامين الأخيرين ، ومن ناحية تالية علاقتي بالفتيح التي تطورت إلى حد جعلته لا يخفي عني مكانتي في نفسه بالتوازي مع أسماء اخرى حيث قال لي :
أنت ومحمد عبد الوكيل جازم ، ومحمد الشيباني ، وعلى المقري ، وبشرى المقطري .
أنتم الأربعة وبشرى (فقط) اراكم الشجرة التي أستظل تحتها ، وأردف يقول :
شوف يا منصور انا أرى نفسي شجرة لكل هذا الجيل يستظل بها إلا أنت ،..... محمد ، ومحمد ، وعلي ، وبشرى الشجرة التي استظل بظلالها الوارف .
تبرير في الوقت الضائع
كم أنا حزين الآن على مواقف فاتتني كان يفترض الانتصار فيها على الظروف التي تهدهدني وتكاد تأتي على ما تبقى من مقومات وجودي .. ظروف لا تقف تبعاتها عند حدود التقصير بشأن التزاماتي نحو مشروعي الفكري الذي يتجاوز العقد والنصف ويشكل الفتيح والجابري والصريمي والفضول وعبدالله سلام ناجي وعلي بن علي صبره ولطفي جعفر أمان وغيرهم كثير جزءاً من مكونه البنائي ، وإنما وصلت تبعات تلك الظروف إلى تهديد عملي ، واستقراري الأسري .
أقول بهذا ربما للتبرير في الوقت الضائع للفتيح الذي كان يعلم بتكالب الظروف ضدي .. فقد كان يتصل بي ويسألني إلى أين وصلت بحل مشاكلك في العمل؟
لا جديد ياعم محمد .
شوف يا إبني حاول أن تنتصر على العقبات أنت لست مثلي ظروفكم هذا الجيل غير ظروفنا نحن الجيل الذي يسبقكم .
هذه حقيقة كان يعلم ويقول لي : أنتم هذا الجيل من المبدعين لا يستطيع الجمع بين الخيارات .. خيارات الوظيفة والنضال ، والأدب ، والكتابة المتعددة .. لا يستطيع أحدكم الجمع بين هذه الخيارات سوى المحظوظين وبشرط التخلي عن أهمها " النضال " الذي يعد ركنا اصيلا في تأصيل الإبداع .
المقالة التي جعلته يبحث عني
كنت قد كتبت عنه مقالة صغيرة في صحيفة المستقلة عن قصيدته " الليل يا بلبل دنا " ، فاتصل بالصحيفة يسأل عني ، ويذكرني بكلمات أطرتني كثيراً وكأنها وسام يعلق فوق صدري بتساؤله : ألست السروري الذي يكتب في صحيفة الثقافية تلك المقالات الرائعة عن الفكر النهضوي ، وعن أيوب طارش ، وعن الشعر الغنائي ،،،،، ،،،،،؟
اجبته بالإيجاب فعبر عن سعادته لما كتبته عنه في المستقلة و سألني : لكن قل لي كيف اكتشفت أنني اصور بهذه القصيدة خيبة أملي بثورة سبتمبر ؟
أجبته النص : واضح
" سنأتي على تفاصيل ذلك في موضع لاحق من هذه المقاربة التوثيقية لتجربة حياة الفتيح الإبداعية ، والنضالية ، الكفاحية ."

وطلب مني أن ألتقي به عندما ياتي إلى صنعاء لحضور اجتماع اعضاء مجلس المكتب التنفيذي لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين الذي كان أحد ابرز اعضائه لدورات عديدة ، عند خروجه من الجلسة تمعن في وجهي بذكائه الحاد وهو يصافحني : عرفتك صورة بدون اسم من فترة طويلة ، وعرفتك كاتباً بدون صورة .. مش (ألست) منصور الذي يزور دائماً الفنان هاشم علي؟ ، وما ان هززت رأسي وانطويت أقبله في الجبهة حتى أسقط دمعة وهو يقول : مازلت اتساءل : كيف اكتشفت أنني صورت بقصيدة (الليل يا بلبل دنا) خيبة أملي بثورة سبتمبر ؟
نعم كتبت هذه القصيدة بعد أحداث أغسطس 1968م التي أكلت الثورة فيها أبنائها المناضلين وفي مقدمتهم البطلان محمد مهيوب الوحش ، وعبد الرقيب عبد الوهاب .
ومنذ هذا اليوم من عام 2007 م الذي تأصل في منزل أديب عزيز يحبه الفتيح كثيراً (محمد عبد الوكيل جازم) فقد استضافنا أنا والفتيح ، والكاتب صادق غانم ــ احد الذين سرد عليهم الفتيح سيرته الذاتية ــ على الغداء والمقيل الذي بعد ذلك حضره الأديب أحمد ناجي أحمد ، ولما كانت الليلة شتائية ، وقد قدم إلى صنعاء ببذلته السفاري (نصف كم) ولأن جاكتي كان كبيراً على جسدي ، ويتناسب معه خلعته ، وبإلحاح شديد مننا جميعاً ارتداه ، ورافقته حتى محل نزوله عند ابنته خلف مبنى اليمنية ، وكانت المفاجئة أنه ترك الجاكت عند (محمد جازم) ثاني يوم فأي طراز من الناس كان هذا الفتيح ؟
استمر تواصلنا فكان لا يأتي صنعاء لحضور جلسات المكتب التنفيذي لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين أو لزيارة ابنته المقيمة في صنعاء دونما ألتقيه ونجلس معاً ، ولا أمر على تعز دونما أزوره وإن لساعة زمان ، بل أن العلاقة تطورت إلى حد أنه استضافني والزوجة وصغاري لمرات عديدة ، ولا أتذكر كم مرة بت عنده في طريقي إلى صنعاء .
وعودة على ذي بدء انقطعت عنه خلال فترة الثورة ، لا أدري كيف أعبر ظروفي استاءت إلى حد بته مشذوخا تائهاً حتى أنني لم استطع الحفاظ على كل موبايل اقتنيه (6 موبايلات مابين مسروقة وضائعة) ، ولما يتصل بي ، ويجد خطي مقطوعا يضطر للاتصال بالزوجة لأن رقم تلفونها معه ، والعكس رقمه معها .. يتصل ليسألها عني ، ويسألها عن صحتها ، والأولاد ويبدي عليها خدماته .

نصيحة الفتيح الذهبية للشعراء

ومن فرط إعجابه بشخصيتها التي لمس منها تقديرا كبيرا ، وحباً جماً لها أنه أهداها كل إصدارات مؤسسة السعيد الثقافية عندما وجدها تقرأ ، وأذكر أنني عرضت عليه بعض نصوص غنائية ادعيت أنها من كتاباتها لمس بعض الأبيات وكأنها زائدة أو مقحمة على النص نصحها نصيحة لا يجب أن أكتمها فكل من يكتب الشعر في مسيس الحاجة إلى تلك الجملة التي قالها لأم زكريا : شوفي يا بنتي تخلصي من بيت أو بيتين لتُخلد القصيدة ، وتخلصي من قصيدة أو قصيدتين ليخلد ديوانك .
وكما قلت رحلتي مع الفتيح كانت قصيرة لكنها كانت طويلة بالقياس إلى كثيرين عايشوه واستفادوا منه معنوياً .
جلسنا ذات مرة ليلتين معاً الأولى : قرءنا ديوان " مشقر بالسحابة " كاملاً أسر لي مناسبة كل قصيدة ، ومضمونها ، والليلة الثانية سرد لي أهم المحطات من سيرته التي قال لي عنها تستطيع ان تكتب عنها ولكن بعد أن أموت ، ولا أخفي أنني حينها سجلت بشريط ، وبالموبايل معظم ما قاله .. كنت قد فرغت الجزء الأول من ذلك الحديث الذي سآتي عليه تالياً ، ويوثق للنصف الأول من سيرته الكفاحية ، وفقدت الجزء مع ما يقارب 13 ألف عنوان من كتب ومجلات ودوريات وصحف ظللت أجمعها على مدى ربع قرن ألتهمتها حروب الحصبة أثناء الثورة الشبابية ، وهي أسوأ كارثة أعتبرها في حياتي راحت فيها كل كتبي ، وأرشيفي الصحفي ، وحتى كتاباتي المؤرشفة ومسودات الكتب التي كنت أعدها للنشر ، ومؤهلاتي ، وشهاداتي الدراسية والتقديرية ، والتكريمية .. كل ذلك انتهى تماماً .
ومن معاني هذه السطور احتجبت في الآونة الأخيرة ، وانقطعت عمن حولي حتى عن القرية والأهل عدا بعض المرات التي أجريت فيها عددا من الحوارات الصحفية وطباعة دراسات كانت مخطوطة تفضلت صحيفة الجمهورية ونشرت الحوارات ودراسة قبلها ، و هاأنذا أعود للكتابة كرة أخرى من بوابة غياب الفتيح .. ملتمساً من مطر ، وأم مطر ، وبقية أفراد الأسرة الكريمة قبول الاعتذار مني ومن أم زكريا عن الانقطاع الذي كان خارجاً عن إرادتي وقصته طويلة .

ولدت سنة مقتل المُفَضل

ذات يوم من أيام العام 1932م يلقى أحد عمال الإمام ــ يدعى المُفضل ــ مصرعه بإحدى قرى قدس على ايدي مواطنين لتعنته المستمر ، وعنجهيته عليهم وظلمه في فرض (الخراج ــ زكاة الغلة / الثمار) بالزيادة عن السنوات السابقة ، وفي موسم اتسم بالقحط والجدب ، وانقطاع الغيث عنهم ، وإذا كان أهالي قدس يتناقلون هذه الحكاية بقدر كبير من الزهو ، والفخر جيلا بعد جيل فلا ريب أن الفتيح يكون أكثر فخراً ، وزهوا وهو يحدثك قائلاً : ولدت سنة مقتل المفضل .
مقتل عامل الإمام في الحجرية كان بمثابة الشرر الذي أشعل حنقه وغضبه ، ودونما يتوان وجه أميره في تعز بتجهيز حملة عسكرية على منطقة قدس لرد الاعتبار ، وإلقاء القبض حتى على من يشك بأنه ساعد أو خطط على قتل المفضل .
وقبل وصول حملة عُكف الإمام غادرت مجاميع من المواطنين والشباب القرى خصوصاً قرية المكيشة التابعة لقدس وهي (عزلة مكونة من خمسة وعشرين محلة أو قرىً صغيرة إحداهن قرية حنحن) التي غادرها عبد الباري الفتيح إلى مدينة عدن .
وبينا كانت أقدام العكف الحافية تطرق مخالف ، ودروب قرية المكيشة يصرخ مولود بإحدى بيوتها صرخة التمرد الأولى .. صرخة ليست بكائية بقدر ما هي إعلان الحضور إلى دنيا الله .. صرخة ستظل على مدى ثمانين عاما مرفوعة بأكثر من شكل ضد الظلم والأخطاء ، وضد كل ما هو قبيح أو لا يمت إلى جمال الحياة بأدنى صلة .
تلك الصرخة هي صرخة الوليد محمد عبد الباري المطل على الوجود دونما يلقي عليه أبوه نظرة إلى وجهه ، أو حتى يسمع صوته .
لم يكد ينقضي الأسبوع الثاني من عمر الطفل حتى خشيت عليه امه من عساكر الإمام المترددة على القرية للبحث عن أبيه فاضطرت على تقميطه داخل قماشة ، وقبل أن تتبين خيوط الفجر البيضاء من بقايا خيوط الليل السوداء خرجت حاضنة لحمته الطرية بين ساعديها إلى عند أهلها بقرية المعامرة شمال شرق قدس .
لينمو الطفل محمد ويترعرع في كنف أخواله ، وبين روابي ، وأودية قدس الخضراء والطبيعة الساحرة التي يصفها بغير عادية كلما تذكر مرحلة الصبا .
بين تلك الروابي ، والشعاب ، والأودية ، والأحوال ، وشواجبها ، وأسوامها ، والغيول ، والمواشي ، والعيل / الحمام ، والطيور المختلفة الأشكال والألوان ، والتي انقرضت مثل كل شئ جميل في هذا الوطن .. وبين مهاجل الزراع ، وزوامل العمار المنتشية ، ورقصات الأفراح ، وأغاني الرعيان الحزينة .. بين ومن كل ذلك تشكلت عبقرية الأماكن ، وكائناتها الطبيعية في ذاكرة الصبي إلى حد التناغي والتماهي .

في العارضة عرفت عنترة والبهلوان والزير سالم

وكما أكد لي " كانت أسرة أخواله مستنيرة " .
ولذلك من الطبيعي أن تكون والدته امتدادا ، وحاملاً لصفات اسرتها فما أن خَسر أول أسنانه حتى ألحقته بالمعلامة بقرية العارضة النّابعة لبني حماد ، وهي قرية تقع بين الصلو وقدس عند الفقيه على محمد الحميدي الذي يعتبره الفتيح أول من زرع فيه القيم ومعاني الحب والخير والجمال .
وبفخر ممتزج بحنين يؤكد أيضاً أن أمه كانت أول من شجعه على حفظ الشعر فكانت تعطيه كل شهر ريالاً ليحفظ قصائد عنترة بن شداد .
يقول : كانت القصائد الرائعة لعنترة هي التي جذبتني جذباً ، وشدتني إلى الشعر ، وإلى جانب الفقيه كان على محمد عمر أحد أقاربه يقوم بتحفيظي الشعر الشعبي والقصائد الأسطورية لعنترة ، وحمزة البهلوان ، والزير سالم ، وقصائد المقداد .

توكل على الله دوّر على والدك

وهو يقلب الورقة الحادية عشرة من عمره اختتم قراءة القرآن في المعلامة ، وفي ليلة ربيعية من ليال 1943 م عصفت به عواصف الشوق إلى حبيب يسمع عنه ولكنه لا يعرف حتى ملامح وجهه .. يسمع من امه ، وأخواله أنه يشبه أباه كثيراً .
عن أبيه الغائب خلف البحر منذ اثنتي عشرة سنة دار نقاشه مع أمه ليلتئذ التي ظلت تتطلع صوبه ، وكأنها تتملى فيه مكامن الرجولة .
ــ الله يا اخي كأنها كانت تتحفظ كل شئ بي عن ظهر قلب ..... (يمسح دمعة لم يستطع مواراتها) .
قلت : المعذرة يا عم محمد أرجو ألا أكون قد نكأت مواجع الذكريات .. ما رأيك نغير الموجة ؟
ــ لا لا لا .. بالعكس أنا فرح بزيارتك لي ، وأنتظر هذه الجلسة معك منذ وقت طويل .. أنت من القليلين الذين أسمح لهم " يبجشون ــ يفتحون) دفاتر الذكريات .
واستتلى مواصلا ذكرياته :
ــ المهم يا أخي قامت من جانبي ، وفتحت حقها الصندوق الخشبي ، وأخرجت منه ريال ماريا تريزا مدته لي ، وهي غير قادرة على حبس دموعها قائلة :

• الفتيح

ــ والله يا بني رحيلك من أمامي صُعيب .. صُعيب على قلب الأم مفارقة الولد ، لكن هذه إرادة الله ، وأنت قدك راجل .. توكل على الله ، وسر دور على أبوك ، هذا ريال ماريا تريزا خذه حُرستك » .

محمد .. الله

لم يقو على سرد تفاصيل الوداع الأول مع أمه لذلك .. توقف متملياً .. وهو يضحك بملء أساريره .
قلت له : أيوه من بكاء إلى ضحك ..... فازداد ضحكاً .
ــ أصلاً حاولت الهروب من موقف توديع أمي يوم سافرت إلى عدن .. واستذكرت موقف اللقاء الأول مع أبي ، وهو موقف أبكى كل من كان موجود بالمطعم ..... يطرق بوجهه إلى قاع الغرفة ، يجتر نهدة من أغوار قلبه المترع بالصدق والحب ، وأوجاع بضعة وستين سنة .
ــ عندما وصلت عدن .. نزلت بمطعم .. ولم يكن أبي عنده خبر أنني سآتي إلى عدن .. وفجأة ظهر رجل مربوع القامة أمام المطعم .. انتابني يا أخي إحساس غير كل كياني ، كنت أكلم نفسي .. لماذا هذا الشخص الوحيد الذي شدتني كل المشاعر ناحيته .. وتملت في ملامحه .. تذكرت من انني اشبهه .. غير أنني فشلت عن تقدير الشبه .. دارت بي الدنيا والأشياء ، ولم أصح إلا على صوت صاحب المطعم ، وهو يقول له : معك ضيف .
ــ ضيف ؟
ــ ضيف عزيز لأول مرة تشوفه .
تطلع الرجل في كل الذين بالمطعم بانتباه ، ونباهة ، وبأناقة لم أراها على أحد قبله أو بعده حتى استقر وجهه فوقي ، وفجأة برقت فوق فمه ابتسامة اتسعت لتشمل كل وجهه ، اضاءت كل شئ تلك اللحظة قدامي خاصة عندما بوقت واحد احمرت عيناه ، وابتسم فمه ونطق لسانه اسمي :
ــ مُحمد ... الله
لم تسعني الدنيا .. كنت أريد ان أنطقها قبله .. أبي .. لكنني استعجمت ، واعتقرت فوق الكرسي .. إلى أن قال لي صاحب المطعم .. قم سلم على أبوك ... خطونا نحو بعض ، واحتضن كل واحد منا الأخر بشدة .. لم أكن مصدقاً أنني أخيراً رأيت وجه أبي وسمعت صوته ، وشممت رائحته ، وأنا الذي كان يرسمه بصور لا حصر لها منذ بدأت أعي أن لكل طفل أب .

من طالب إلى أُسطى

ذلك الموقف لن أنساه والموقف الثاني عندما أراد تسجيلي في أحدى مدارس عدن ، ورفضت المدارس البريطانية قبولي لأنني كنت من ابناء الشمال ، لا تقبل غير مواليد عدن فقال لي :
ــ والله لَقَطّع من جسمي لحم وابيع من أجل تدرس .
هذه الجملة ظلت تسايرني وتلاحقني طيلة سنوات عمري .. أين ما أقيم يجب ان اواصل دراستي .
أخيرا استقر به المقام الجديد في حضن والده الذي كان يقوم إلى جانب عمله مؤذناً في جامع أبان ، والتحق بمدرسة النجاح بحارة الزعفران بعدن المرحلة الابتدائية ، ولأنه كان يجيد القراءة والكتابة ، وعمليات حساب الجمع والطرح التي سبق أن تعلمها في معلامة القرية فقد اختبرته المدرسة ، وأدخلته الصف الرابع الابتدائي يكمل الابتدائية العام 1946 م ، ولم تكن هناك مدارس إعدادية حينها لقبول أبناء الشماليين في عدن اضطر التوجه للعمل في مجال البناء ، والبلاط ، ومن زملائه الذين كانوا أساطية وظل يتذكرهم بوفاء منقطع النظير عبد الرب علوان الذي صار من كبار موظفي وزارة الخارجية ، و الاستاذ علي نعمان ، وعبد الجليل قائد حيدر الذي كان يحفظ اشعاره كما لم يحفظها هو نفسه حد تعبيره .
وفي هذه الفترة المبكرة تفتقت مداركه الأولى على الحياة ، وتشكلت علاقاته الاجتماعية .. تعرف على محمد مرشد ناجي في الشيخ عثمان ، وعلى صحيفة الفضول ، وغيرها من الصحف التي كانت تصدر في عدن ، و حضر بعض فعاليات حركة الأحرار اليمنية التي كانت تنشط في عدن ، وقرأ أدبياتها .

العودة إلى القرية

مع مطلع الخمسينيات يعود الأب عبد الباري الفتيح إلى القرية بعد ان اطمأن أن الابن قد صار شاباً ، وأسطى للبلاط في عدن ، ويتمتع بشخصية اجتماعية ، ومحبوبة من قبل الجميع .. عاد الأب بعد أن طوى النسيان ، والسنوات في أعطافيهما حكاية مقتل المفضل ليمكث في القرية مدة ليست بالقصيرة تعويضاً لسنوات الغياب التي عاشها بعيداً عن أسرته .
وفي ليلة من ليالي منتصف عام 1952 م ، وبينا قرية حنحن ترقد في حضن جبل الكدرة عزلة المكيشة بصمت وديع ما عدا نباح كلاب راحت تقض سبات القرية الهادئ على إيقاعات خطوات شاب راح يخترق ممرات القرية المتعرجة بثقة العارف بطرقها المتعددة .
أخذت الكلاب تزفه ، وتتكاثر ، وترابط خلف الحوية رافعة من ثورة نباحها ضد الغريب القادم .
نحى (الزربة ــ قطعة من شجرة شوكية يابسة) جانباً ليدخل فناء الحوية ، وقبل أن يطرق الباب تريث قليلاً لأخذ قسط من الراحة .. يسمع صوتها من الداخل :
ــ تقول : على من الكلاب الليلة تنبح ؟ ..... كانت أمي تسأل والدي .
ــ الله يعلم على من ؟
ــ أقولك : المحفى اليوم ما فارقش يدي من العصر
ــ إن شاء الَله يكون خير .
ابتسمت لسماعي حواريهما الدافئ ، وتواً طرقت الباب طرقة واحدة .. وكأنها كانت تنتظرني رغم أنني حاولت ما أردش من أول مرة وهي تسأل : منو عند الباب ؟
ــ أنا .. أنا
ــ هذا كأنه صوت إبنك .
ــ محمد
ــ بشحمه ولحمه .
ونزلا الاثنان يفتحان الباب ..... تخيلت معه الموقف وذهبت أشاطره البكاء والدموع الصامتين ..... يكمل قصة عودته .
ــ شوق جارف ، تخيل تركتها وأنا عمري 12 سنة ، وأنا طفل ، وعدت إليها في سن بالعشرين .. شاب مضلع ملء هدومه .. يوم ودعتها كان طولي ذراعين ، وعودت إليها وأنا بالشارب واللحية وبأناقة .
احتضنتني وأخذت تقبلني إلى حد أن عمك عبد الباري الفتيح قال لها :
ــ يكفي خلي لي قليل معك منه .
استيقظ البيت ، والبيوت المجاورة ، ولم نبت تلك الليلة .
بعد ثلاثين سنة ، وأثناء قيام الفتيح باستذكار هذا الموقف قام أحد المذيعين باستلهامه وكتابة نصه وتأدية دور بطله في حلقة إذاعية درامية واحدة استمرت تبث بين وقت وأخر على مدى عقد الثمانينيات من إذاعة تعز .
وعندما سألت الفتيح عن سر تطابق تلك الحلقة الإذاعية مع نفس حكاية عودته من عدن لم ينفي استلهام الكاتب بالإذاعة القصة من حكايته مع فارق بسيط هو أن الكاتب لم يحدد فقط اسم القرية ولا الأسرة .

منظر ووصية لا ينسيان

لم تدم فترة إقامته في القرية كثيراً ، وبعد مشاورة ذاتية استشار أباه بما نوى عليه .. الهجرة إلى السعودية .. فقد كانت المؤشرات بائنة .. الذين يهاجرون إلى دول الخليج أمورهم ، ومظاهر حالات أهاليهم المعيشية ميسورة على نحو أفضل من الذين يعملون في عدن .
الأمر الأخر هو أن الشاب يطمح بمواصلة دراسته التي انعدمت فرصها في عدن .
في نفس الوقت كان أبوه يتهيأ للعودة إلى عدن للعمل .
وبمرارة الشجن يتحدث الفتيح عن ذلك اليوم الذي خرجا فيه راحلين هو إلى السعودية ، وأبوه إلى عدن .
كان الاهالي فوق سقوف دور القرية ، ومنازلها يتطلعون صوب الأب ، والإبن المهاجرين فبين ملوح يديه بالوداع ، وبين داع (الله يرجعكم سالمين غانمين) .
ــ الله يا خي .. لن انسى منظر ذلك اليوم خصوصاً منظر أمي التي أبت واستكبرت إلا بالخروج لتوديعنا إلى خارج القرية .. كم أشفقت عليها وهي تعانقنا عناق الوداع وهي بحال لا أقوى على وصفه الآن .
وحتى لا تسمع وصيته ، أو ترى منظره ابتعد بي بضعة خطوات عنها ، وقال : شوف يا إبني ، وبحق حبك وطاعتك لهذه الإنسانة لا تكسر قلبها ، وتغيب كثيراً حتى لا تعيش حياتها مكسورة القلب مرتين .
في بداية شبابها حرمت من زوجها ، فلا تحرمها بقية عمرها من ابنها الوحيد .. يكفي أن تغيب سنتين فقط ثم ارجع لنفرح ، ونجبر قلبها بتزويجك .

القرار الذي أودى بمشروعه الاستثماري

لم يك الشاب محمد الفتيح ممن يضيعون الوقت فما نزل بالسعودية حتى وجد لنفسه عملاً في الجص ، راح يضع الريال فوق الريال إلى أن وفر مبلغاً لا باس به ، واستدان فوقه مبالغ أخرى من يمنيين فتح به معمل من عدة مكائن ، وأقمشة للخياطة ، وما أن بدا في العمل حتى صدر قرار ملكي قضى ذلك العام بسحب التراخيص ومنعها لغير السعوديين .. اضطر إزاءه ببيع المعمل بنصف القيمة لإعادة المبالغ التي كان قد استلفها .

ومع ذلك انتصر

صحيح أنه تأثر عند تطبيق القرار المجحف غير انه لم ييأس أو ينهزم فقد انتقل إلى منطقة الشرقية وهناك يستقر به المقام بمدينة الخبر حيث يعمل في مهنتي البناء ، والبلاط قبل أن يتفرغ للأخيرة التي صار فيها معلماً محترفاً ، وفرصها اكثر إذ كانت السعودية حينها في بداية نهضتها العمرانية .
ينتصر الفتيح على الظرف العابر لأن الغاية عنده إلى جانب العمل كانت كبيرة .. مواصلة الدراسة بدليل حرصه على أخذ شهادات دراسته في عدن التي تثبت إكماله للمرحلة الابتدائية .
يلتحق بالمعهد الثقافي بمدينة الخبر 1954م ، وكمعلم أو اسطى للبلاط فقد كان يأخذ مقاولات خاصة به تعتمد على حجم الإنجاز ، لا على الدوام .. استطاع الجمع بين العمل والدراسة .
ومع نهاية العام الدراسي الذي أكمل فيه بنجاح الصف الأول الإعدادي ، وكان قد وفر مبلغاً محترما .. ولما لا تكاد وصية أبيه يوم غادر القرية تفارق ذهنه .. يفزع إلى تجهيز نفسه للسفر ، وكما يقول حتى لا أكسر قلب امي " الله يرحمها " .
يوم قاد الفتيح اول مظاهرة عمالية في السعودية
يعود الفتيح ثانية إلى السعودية بعد أن ترك خلفه في اليمن أباه الذي قال له وهو يودعه :
ــ لا داع لأن تعود للعمل في عدن .. ستصلك (صدارة) كل أول شهر تعيشك أمير .. خليك هنا في القرية تباشر احوالك وشعابك ، وترعى الوالدة ، والزوجة ، وحلفته يمين ألا يعود لعدن من اجل العمل .
يعود الأسطى إلى الشرقية .. ينهمك في الدراسة فيكمل ثاني ، وثالث إعدادي ، ولأن طبيعة مهنته لا تتطلب دواما انضباطياً فقد كان يصرف أوقات الفراغ فوق قراءة الكتب الثقافية .
وفي هذه الفترة قرأ كتب التراث وأصولها ، وآدابها .. ليغدو احد اهم الشباب اليمنيين المثقفين في الشرقية ، ومن الذين يرجع إليهم لأخذ مشورتهم .
يعلم متأخرا بموت والده فقد كانت ظروف التواصل والمراسلات ذلك الوقت مرتبطة بـ (الطبل) أو المسافرين .
يقرأ في صحيفة سعودية مقالة هاجم فيها كاتب العمال اليمنيين ، بالسب والتنقيص .
موقف لم يروق للفتيح المعجون من عصارة التراب اليمني ، والكفاح الإنساني ، والسمو الاخلاقي ذي الرواسب الحضارية الممتدة في اطناب العصور والدهور .
يتساءل : ــ لماذا يسب هذا الصحفي اليمنيين ؟ إذا كان لا يوجد لهم وطن يعزهم بسبب حكامه ، ومحتليه فلا يحق للصحفي أن يقلل من شأنهم .
ذهب للصحيفة ، وطلب مقابلة الصحفي فقط لمناقشته ، وعندما رفضوا السماح له بمقابلته أو تقديم اعتذار لليمنيين عاد ، واخذ يلملم العمال في الشرقية ، ويستحث فيهم العزة والكرامة حتى تجمع عدد لا يستهان به في دولة يحرم فيها التعبير بالتظاهر والاحتجاج بأي شكل من الأشكال ، وتواً اتجهوا إلى امام بوابة الصحيفة مطالبين الصحيفة ، والصحفي بنشر اعتذار عن السب .
ألقي القبض على الفتيح وبعض من الذين ساعدوه آمرينهم بمغادرة ارض المملكة على وجه السرعة .
ليكتب أول قصائده السياسية التي يعتز بها أيما اعتزاز معبراً فيها بشجاعة ، ووطنية نادرتين وهي قصيدة غير مطبوعة في ديوانه المطبوع ، ومن شدة حبه لهذه القصيدة لم ينساها بتاتاً .. بل أنه وهو يقراها يخرجها بجرس موسيقي يمزج بين الحب ، والاعتزاز بالوطن ، والكرامة ، والهامة المرفوعة الراس .
" سأعود يا أنشودتي "
سأعود يا أنشودتي لا تعجلي
سأعود يا حلم الفؤاد
ويا رؤى المستقبل .
سأعود فالفجر المؤمل يا مناي لاح لي .
أنا من دمي قد صغت فجري
كي أعود لمنزلي .
رصي عقود الفل يا هذه
وتيهي .. هللي .
واستقبلي الزحف المظفر زغردي للجحفل .
ها نحن نبعث من جديد فابشري وتفائلي .
ها نحن نطوي الليل .. ليل الظلم .. ليل الباطل
ليل يمتص دمي باسم الكتاب المنزّل
بنوا القصور لهم ، وللدخلاء .. لكل مَضلل
هم شيدوها من رغيفي .. من كفاحي الأنبل
من بؤس من قد هاجروا .. من كبريائي السائل
ليخططوا فيها رغائب من عليهم يعتلي .
ليمزقوا فيها العروبة كي أعيش بمعزل .
لن تخلو نار الحقد في قلبي .. فهاهي تصطلي
إلا إذا ديست جباه العابثين بأرجلي .
وغداً
وغداً
وغداً سأعود
لأنني سأموت إن لم اقتلي
وحين يكمل الفقرة الأخيرة .. يعقبها قائلاً : الفقرة الاخيرة استلهمتها من شعر عنترة بن شداد إعتزازاً بشعره ، وامتثالاً لشجاعته وليس لطشاً كما يفعل كثير من شعراء هذه الأيام .
وكانت عودته إلى اليمن مع نهاية عقد الخمسينيات .. مكث عاما ، وعدة شهور في القرية يقوم خلالها بتدريس أبناء القرية دروساً غير تقليدية كما كان سائداً في الكتاتيب / المعلامة .. حيث درسهم القراءة والعمليات الحسابية الأساسية إلى غير ذلك مما كان يسمح به مقتضى الحال ، وإلى جانب التدريس يبتل ، ويحرث ويسقي وينقي ، ويجهش ، ويحصد ثمار أحواله ، ويجالس فيه أعمامه ، وأخواله ، والرعية ، ويتعلم منهم حساب الزراعة ، ونجومها ، ومعالمها ، وتواقيتها علاوة على استلهام موروث الأمثال الشعبية ، الزوامل ، والمهاجل إلى اخر ذلك من مكونات وتشكلات ذائقته الشعرية المعجونة من عرق الجبال ، ورائحة الأمطار ، وأصوات الغيول ، وحنين الحقول ، ورقصات الاشجار ، ونشوات العمار ، و دوادح الرعيان ، ومواويل الأبتال .....
باستثناء العام 1959 م الذي قضى معظم شهوره في قريته كما أسلفت يكون عمره 26 سنة عاش أكثر من نصفها .. 14 سنة متجرعاً مرارة الهجرة و الاغتراب في عدن ، وبعدها السعودية يدرس ، ويعمل ، ويثقف نفسه ، ولم يهنأ باجتماع يشمله مع كل اسرته سوى أوقات من السهل حصر عدد أيامها .
12 سنة طفولة مع امه ولا يعرف وجه أبيه .. ثم بضعة سنوات مع أبيه دون امه .. فغربة عنهما الاثنان معاً .. وما أن يحاول إلزام أبيه بالبقاء في القرية يغادره دونما يودعه الوداع الأخير .. ومثلما لم ير ابيه وجهه حين جاء إلى الحياة غادرها دونما يكون وجهه أخر من يودعه .